تحيّة إلى الفنان مارون الحكيم

ليليان ح. الرياشي

مِن قلبِ بيروت النّابضِ بالحركة... شارعٌ يغُصُّ بالضّجيج والزّحام... يحتَضنُ في ثناياه غاليري «آرت أون ٥٦» التي تَألّقَتْ، وعلى مرور السّنين، بأرقى الفنونِ الجميلة... ولا تزال مُراداً يلوذ اليه كلّ مَن شَغَفَه فنُّ الحياة فعاش حياتَه بفنّ ...

وها هي اليوم تتزَيّى بحُلَلٍ من عبير ، وتَزدانُ بلوحاتٍ ومنحوتات تَموجُ برُواء جمالها... فقد شرَّعَتْ بفرحٍ واعتزاز أبوابَ صالاتِها لتُسَلّطَ الاضواءَ على أعمال الكبير «مارون الحكيم»...

فنّانٌ تشكيليّ، تجري في دمائه خمائل الفن الاصيل... عاشَ حبّ الفن فأحياه بحب كبير... تأصّلَ من عَراقة التراث، فعبّر بالريشة والإزميل والالوان، عن رسالته السّامية برقيٍّ وأخلاق وإنسانية... وعاصرَ الحداثةَ بتَمدّنٍ وفُروهة... فاعتلى أعراشَ الفنون مُتفرّداً بحِكمته التي حملَت توقيعَه فكان «الحكيم» عن جدارةٍ واستحقاق...

من قاعة الإستقبال الرَّحبة، تبدأ الرّحلة... والرّحلة ايضا فنّ... ومع «الحكيم» يحلو الرّحيلُ الى ما وراء الخطوط المتشابكة والمتعانقة... الى متاهات التخاطيط اللازورديّة... الى الشّفق المتلألئ بالتلاوين... الى المدى البعيد... حيث لا بداية للآفاق ولا لأبعادها نهايات...

رسومٌ كثيرة زيّنتِ الجدران فوَهَجَ بريقُ سحرِها... نَسْتَنشِقُ رَحيقَ ألوانِها ونَسْتَشِفُّها بحرارةٍ لنكتشفَ خفاياها ... كلُّ لوحةٍ تَهمسُ بِصمت... تتنهّدُ بشوق على ورقٍ او قماش... كنسمةٍ من مُنى الاحلام، تُلامس قلوبَنا، تدغدغ مشاعرَنا، فنذوبُ في غمائمَ من الورود...

أرادَ الفنان «الحكيم» من خلال معرضه أن يُطيِّبَ القلوب التي أفجَعَتها الآلام وينثرَ بصيصَ نورٍ في أنفاسِ الأشجان... فرسمَ، ونحتَ، وبرهافةٍ تمسّ شُغاف الرّوح، ما يَختَلِجُ في ذاته من آمال وأمنيات، مُلْقياً، ومن صميم قلبه «تحيّة الى بلاده»...

-تحيّة اولى الى"بيروت" المنكوبة بعد حادثة المرفأ...المدينة التي أذْوَتها صواعق الإنفجار، فأرْدَتها في جحيمٍ من ألألسنةِ المُضْطرمة... و«الحكيم»، المتفاعل، وبشفافيّة وحَساسيّة مع هوْل الكارثة التي أصابت قلب الوطن ... تأجّجت مشاعره ارتياباً، فصوّر َوبِمصداقيّة رفيعة، العاصمة المُشرقة التي أطفأتْ قناديلَها مُنهكةً وقد خارتْ قِواها ... تَستغيث من تحت الرّماد، مستسلمة لبئس المصير...

رسومٌ تنازع في حُلكة سوادٍ مريب... ارتأى الرسّام ان تكون هذه اللوحات كبيرةً بحجمها، كحجم المآسي التي غرزَت سهامَها في صميم البلد وكبّدَته الخسائر... ألوانها بدت قاتمة... سوداء ككَبوة الموت الصاخب...كجُذوة النيران التي التهَمتْ الحياة من أحشاء الحياة...

ولكن «كغيمة صيف"... تنقشعُ الالام المتأوّهة ... ومن دَمَس الظلام، يتراءى ذلك البياض الناصع الذي يُضيئه «دفء الثلوج» و«دفء واشتعال"، فتنبعثُ «السّكينة في الارض»... صادحة، مهللة، تَرتجي الهدوء بعد طول احتضار... رَجوةُ التفاؤل... لطالما طَبعَت لوحات «الحكيم» الذي يأبى الإستسلام والرّضوخ للواقع الأليم... فمن رَحِم الاحزان يولد «ضوء في قلب الرّكام»... «والسماء المتساقطة على المدينة»، «تسترجع روحها»، «وارض الرماد تنتظر الفجر» لتقوم من جديد... نزاعٌ على البقاء وأمل يرفع الرّاية البيضاء ...و«البدر» المشعّ يسرحُ في أسميةٍ مخمليّة ... و«الغسَق» يودّع دُجى أحزانه باسماً، مُبشّراً بفجر واعد وبغد تفوح منه أطياب السلام...

نور يخترق الظلمة... وريشةٌ تنتثر من الوانها بشائر الفرح والحياة..

-وتحيّة ثانية، الى «بيروت» ... الغادة المتغايدة على عرش الجمال «عند المغيب»... الباهرة بوَهجها «ليل» وشوق لاحتضان «القمر»... الساحرة بسهولها وجبالها «جبال تحرس والسهول»، «في أحضان الجبال»... الفاتنة بمساحاتها الخضراء «مساحات النور والمدى»، «حوار بين ارض وسماء» ... البهيّة بألوانها «صنين ينادي الليلكي»، «احمر يُدفئ الشتاء»...الحسناء التي استمالت القلوب وهفَتْ اليها النفوس التوّاقة الى ليالي الأنس والسّمر والرغادة... سحَرتْه الطبيعة الخلّابة فرسمَها وأغدق عليها من نضرة التلاوين ألوانا زاهية كزهوة الضّياء... كانت دائما مُلهمَته، وسعادته، وتعزيته وعشقه... كأيقونة روحانية اعترَشَت لوحاته ... منها استمدّ افكاره وايحاءاته فترجمها حياة صارخة على ورق...

-وأيضًا وأيضًا... أضاميمٌ من المنحوتات ملأت المكان فترنّحَتْ لبهائها العيون... كل واحدة نُحتَت بإزميل القلب...وحُفِرت بأوردة الشريان .... «حجر الماء»... خفق بارتعاشةٍ راعدة «ارتعاشات مولّدة»... فتجلّى «أنوثة» في «قصيدة» إنتشَت من صبوة الهُيام... «كذَوْب الشّهد» ترقرق الحجر بين يديه ... حتى نطقَ بأبجدية «الثالوث»... فكان «حوار» إرتقَت اصداء همساته «نحو السماء»... نقشَ «رغباته» في الجَماد «فقطفها» بقاء وخلودا على «تلال العسل» ... «سيمفونية الانثى والطير»... لحن يتهادى بأنغام دافئة ليضفي لمسات عذبة على المكان المليء بالتُحف الفنيّة، التي تميل كالغيد امامنا ... ونعاود الرحلة مرة ومرات... فلا يرتوي الظمأ ولا القشعريرة تستكين...

وينتهي المشوار ولكن يبقى رونقه محفورا في الوجدان ... تمامًا كحفاوة واستقبال «الحكيم» الباسم والشغوف... الذي وإن حكى جاد بالمعرفة... وإن رسم أتقن ... وإن نحت أبدع ... هذه حكمته التي أغْنَتها جُموح مشاعره المتجمّرة فناً ...

في النهاية... شكرًا ومن القلب على الكتاب-الهدية «المرايا الخلفية" وعلى الكلمات التي خصَّصتني بها... ستبقى رحلتي هذه تتمايحُ في أعماق قلبي وتختال فرحًا بين أجمل الذكريات ... مع فائق تقديري واحترامي ومودّتي...